



أدب المقال عند محمد البشير الإبراهيمي من خلال عيون البصائر -دراسة أسلوبية فنية-

Writings of Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi

A Stylistic and Artistic Study

حليمة صوفي *

¹ جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر)، soufihalima1@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/03/31

تاريخ القبول: 2025/03/19

تاريخ الإرسال: 2024/10/27

الملخص:

لم يكن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مفكراً مصححاً، ومناضلاً محنكاً فحسب، بل كان أديباً بليغاً، وشاعراً فحلاً، وخطيباً مفوّهًا، وناقداً فذاً، وعالماً فقيهاً.

تميّز باكتسابه لمهارات فنية مزهرة، تظهر جلياً بمقالاته في عيون البصائر، والتي تعدّ درراً نفيسة، وقطعاً فنية خالدة، أدّت دورها البطولي الكبير في استنهاض همم الجماهير، فقد كانت تخاطب الذات الجزائرية، وترسخ بها مقومات الأمة وثوابتها. تناول فيها الشيخ أفكاره الإصلاحية بأسلوب أدبي بالغ الروعة في الجمال، شكّل همزة وصل بين التراث الأدبي القديم والإنتاج الأدبي الحديث والمعاصر.

والمتتبع لأثار الشيخ الإبراهيمي يجد أنّه أثرى الحياة الأدبية بكتاباته الرّاقية وممارساته الفنية الإبداعية التي تعزّزت بنسيج فنيّ أنيق، وذوق أدبي سليم، يركّز في مجمله على دعائم قرآنية إعجازية، تهيمن عليها نزعة الخطابية.

الكلمات المفتاحية:

البشير الإبراهيمي؛ عيون البصائر؛ المقال؛ الإصلاح؛ الإبداع.

ABSTRACT :

Sheikh Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi was not only a reformist thinker and a seasoned activist, but also a distinguished literary figure, an eloquent poet, a skilled orator, a remarkable critic, and a knowledgeable scholar in Islamic jurisprudence.

He was known for his mastery of flourishing artistic skills, clearly reflected in his articles in *Uyoon Al-Basaer* (The Insights), which are considered precious gems and enduring artistic pieces. These writings played a heroic role in awakening the spirit of the masses, addressing the Algerian identity, and reinforcing the nation's core principles and

foundations. In them, the Sheikh presented his reformist ideas in a remarkably beautiful literary style, forming a bridge between the literary heritage of the past and contemporary literary expression.

Anyone studying Sheikh Al-Ibrahimi's works would find that he enriched literary life with his refined writings and creative artistic practices, enhanced by a sophisticated artistic fabric and sound literary taste. His work was fundamentally rooted in the miraculous eloquence of the Qur'an, predominantly characterized by his rhetorical inclination.

Keywords:

Al-Bashir Al-Ibrahimi; Uyoon Al-Basaer; articles; reform; creativity.

أدب المقال عند محمد البشير الإبراهيمي من خلال عيون البصائر

-دراسة أسلوبية فنية-

مقدمة:

كان للأدب الجزائري إبان الاستعمار دور بطولي كبير في تحريك عواطف الجماهير وشحن هممهم، ودفع مشاعرهم للتعاطف مع ثورتهم. ولا يكتمل الحديث عن الأدب الجزائري إلّا بوقوفنا على إسهامات الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي، خصوصا إذا ما تحدّثنا عن النثر، الذي يعدّ سلاح الشيخ الأول في ساحة الإصلاح والمقاومة.

ويعدّ الإبراهيمي من لفيف الأدباء الذين أثروا الكلام المرسل على القريض، مخلفين دررا ونفائس في ميدان الكتابة الفنية، فأرسوا بذلك دولة النثر الجزائري، هذا الذي كانت له جذور ضاربة في عمق القديم، واستمر الخوض فيه إلى العصر الحديث، حيث واكب مختلف الأحداث والمستجدات التي شهدتها الجزائر من احتلال واستعمار، ومقاومة وثورة، واستقلال وبناء.

وإن كان الإبراهيمي رائد المدرسة المحافظة الأولى، الذي تمكّن في أدبه من الجمع بين توجهات عديدة، فكان بدون منازع -الرجل الذي جمع بين العلم والتاريخ والسياسة، والأدب والتربية. كان كذلك فقيها في اللغة العربية، متضلعا في آدابها وفنونها، عالما بالتفسير والحديث وعلومه، والفقه وأصوله. فالشيخ معجزة من معجزات الثقافة العربية الإسلامية في القرن العشرين، ونماذجه البلاغية في مواضيع مختلفة تؤكد تفوّقه لغة وبيانا. حيث أذعنت له هامات الفكر، اعترافا بفضله وجهوده المنصبة خدمة للعلم، وعملا على الارتقاء به.

كما يعدّ الإبراهيمي أحد عمداء الأدب ورواد الفكر في العصر الحديث، وفخر الجزائر، وذخر اللغة العربية؛ ومثل هذه الشخصية الأدبية الفذة التي مثلت الأدب خير تمثيل، تستحقّ العناية والدراسة، والإجلال والإكبار.

وقد جاءت هذه الأوراق البحثية كدراسة جزئية لأعمال الشيخ، اختصت بخصائص المقال وجمالياته عنده؛ فاخترنا من أعمال الإبراهيمي فنّ المقال، لأنّه الفنّ النثريّ الذي حاز عناية خاصة منه، ونال جهدا وفيرا

لديه، فهو المرآة العاكسة لواقع الشعب، والوسيلة الكفيلة للتعبير عن أوضاع المجتمع ومشكلاته في مختلف مجالاته السياسية والاقتصادية والدينية، والتاريخية والأدبية، وعليه اقتضت منا المنهجية طرح جملة من التساؤلات أهمها:

- ماهي مميزات وخصائص المقال عند البشير الإبراهيمي؟

- وما هي طبيعة المواضيع التي تناولها في مقالاته؟

- وكيف تجلت السمات الأسلوبية والفنية التي تعزز بها أسلوبه؟

- وماهي الأبعاد الجمالية التي انطوت عليها كتاباته؟

وقد خصص مدخل البحث للتعريف بالشّخ الإبراهيمي، والحديث عن جانب من حياته وأعماله، مع التركيز على "عيون البصائر" لاحتوائها على مقالاته، أعقبه الوقوف وقفة مقتضبة على فن المقال عند الإبراهيمي وسبب نزوعه له دون باقي الفنون. ثم بسط الحديث عن اللّمسات البيانية التي أضفاها الإبراهيمي على مقالاته من خلال دراسة اللّغة، والخيال، والأسلوب وخصائصه. وخلصت الدراسة إلى خاتمة تضمنت في جوهرها نتائج عامة حول شخصية الإبراهيمي وأثاره.

ومن الصعوبات التي تعترض الباحث في أدب البشير الإبراهيمي، ضيق الوقت لأنّ شخصيته وأعماله تحتاج منّا وقتا وفيرا وجهدا غزيرا، حتى نتمكّن من الإلمام ولو بجانب يسير من الأبعاد الإصلاحية والأدبية التي قدّمها في أعماله، هذا من جهة، وندرة المراجع التي تناولت أعمال الشّخ بالدراسة من النّاحية الأدبية والفنية من جهة أخرى، ضف إلى ذلك صعوبة انتقاء النّماذج محل الدّراسة من مجموع مقالات عيون البصائر.

وتتطلب آثار العلامة الإبراهيمي من الباحث بذل أقصى جهده من أجل أن يوفيهما حقّها؛ وذلك بامتلاك مفاتيح الدّخول إليها وفك شفراتها، وفهمها حقّ الفهم لمعرفة الإبراهيمي حقّ المعرفة، وتقديره بما هو جدير به، ليس بالاطلاع على حياته فحسب، بل بالتبحّر في أعماله والبحث في مختلف أبعادها الدينية والاجتماعية والسياسية، والثقافية.

يعدّ الإبراهيمي من الرّعيل الأول من المفكرين الذين شغلهم اهتماماتهم القومية والتزاماتهم الإصلاحية عن الإنتاج المكتوب، ففضّوا حياتهم في تكوين الرجال تاركين تأليف الكتب تقديما منهم للأهم على المهم، وقد أكّد ذلك بقوله: "لم يتّسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكنني أتسلّى بأنّي ألّفت للشّعب رجالا، وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصحّحت له دينه ولغته، فأصبح مسلما عربيا، وصحّحت له موازين إدراكه، فأصبح إنسانا أبيّا، وحسي هذا مقربا من رضى الرّب ورضى الشّعب"¹.

1- الشّخ محمد البشير الإبراهيمي في سطور²:

ولد عند طلوع شمس يوم الخميس 13 شوال 1306هـ، الموافق لـ 14 جوان 1889م بدائرة سطيف، من بيت علم عريق خرج أفذاذا في علوم الدين والعربية، حفظ القرآن الكريم ومتون العلم الشهيرة وهو ابن التسع سنوات، درس العربية وتلقى علوم الدين على يد عمه القائم على تربيته "الشيخ محمد المكي الإبراهيمي"، الذي كان علامة زمانه في اللغة العربية وعلومها، مات عمه وهو ابن أربع عشرة سنة، بعد أن أجازته في العلوم التي أخذها عنه، وبعد موت عمه خلفه على تدريس تلامذته وغيرهم، إلى أن جاوز سن العشرين سنة، وبعد سقوط عواصم العلم الشهيرة بالمغرب، هاجر مع والده إلى المدينة المنورة فرارا من المستعمر الفرنسي، أين تلقى علوم الدين المتنوعة من تفسير وحديث، رواية ودراية، وعلم الرجال وأنساب العرب، ومكث بها مدرسا مدة ست سنوات، ثم سافر إلى دمشق أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان مدرسا للغة العربية بالمدرسة السلطانية مدة سنتين.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عاد إلى بلده الجزائر، وبقي بها ينشر العلم إلى سنة 1931م، وكان أحد اثنين ممن يعود لهما الفضل في تكوين جمعية العلماء المسلمين، وهو "العلامة عبد الحميد بن باديس"، كرّس حياته للعلم وتأسيس المدارس، ووضع المناهج، من أجل إحياء علوم الدين واللغة العربية بالجزائر من الابتدائية إلى العالية. كان وكيلا للجمعية في حياة "ابن باديس"، ورئيسا لها بعد وفاته. وفي سنة 1952م، رحل إلى الشرق بتكليف من جمعيته سعيا لدى الحكومات العربية لتقبل البعثات الجزائرية من جهة، وطلباً للإعانات المالية من هذه الدول لتمويل نشاطات الجمعية التي اتسعت مع المحدودية المالية للشعب الجزائري من جهة أخرى، وقد زار القاهرة وسوريا والحجاز، والعراق وباكستان، ولما قامت الثورة المباركة سنة 1954م، واستفحل أمرها انقطع عن زيارة الجزائر، تاركا بها مؤلفاته ومسوداته كلها دون اصطحابها معه لكي تطبع، حتى لا يخلط بين واجب الوطن والمصلحة الشخصية، مشاركاً بذلك في التمهيد للثورة وتهيئة أسبابها لتختم ختاماً جميلاً وتنال الجزائر حريتها واستقلالها.

عاش الإبراهيمي حتى استقلت الجزائر، وتوفي وهو رهن الإقامة الجبرية في منزله يوم الخميس 20 ماي 1965م، تاركا مجموعة من الآثار أهمها:

- عيون البصائر: وهي مجموعة من مقالاته التي كتبها في السلسلة الثانية من مجلة البصائر.
- بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية بالجزائر.
- النقايات والنقايات في لغة العرب: جمع فيه كل ما جاء على وزن فعالة من مختار الشيء أو مرذوله.
- أسرار الضمائر في العربية.
- التسمية بالمصدر.
- الصفات التي جاءت على وزن فعل.
- نظام العربية في موازين كلماتها.
- الاطراد والشذوذ في العربية: وهي رسالة في الفرق بين لفظ المطرد والكثير عند ابن مالك.
- ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة.
- رسالة في ترجيح أن الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان.

- رواية كاهنة الأوراس: بأسلوب مبتكر يجمع بين الحقيقة والخيال.
- رسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصحى والعامية.
- حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام.
- شعب الإيمان: جمع فيه الأخلاق والفضائل الإسلامية.

2- عيون البصائر:

لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي كان أحد رؤسائها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وهي مجموعة من المقالات كتبها الشيخ كافتتاحيات لجريدة البصائر في سلسلتها الثانية، فكانت نماذج أدبية راقية، ذلك أنّ صاحبها امتلك ناصية اللغة العربية فذلت له أوابدها، وغرف شواردها. فقد كان فصيح المنطق، ذليق اللسان، قوي العارضة، يذكر إلقاؤه وأداؤه بأدباء العربية في أزهى عصورها³. مقالاته في البصائر تبين أنّ صاحبها ثقف أدب القرآن، وتذوق بيانه، ووعى أسرارها، كما عرف الحديث رواية ودراية، ذلك الزاد أثمر نماذج مشرقة من أدب عربي ناصع الديباجة، رفيع الأسلوب، سامي المعاني، شريف الغاية. اشتملت عليه عيون البصائر التي لم تنل من عناية الدارسين ما تستحق من البحث والدراسة.

وموضوعات عيون البصائر متنوعة، عالجت مشكلات مختلفة، من تعليم النشء، والدّين الإسلامي، إلى موقف الاستعمار منهما، إلى مشكلات اجتماعية وسياسية أخرى، كما عالجت مشكل القضية الفلسطينية، ولم تغفل حتى عن مشكلات المغرب العربي.

وجهود الإبراهيمي كانت تجسدها مقالاته في الجريدة التي كتبت في ظرف عصيب وصعب، وكانت تحمل همّ الأمة الإسلامية كلّها، حيث بدأ الإبراهيمي مقالاته بشؤون الجزائر، ومنها إلى هموم فلسطين وغيرها من الأصقاع، كان يكتب ويمحّص عن الأمة الإسلامية آنذاك، ويدفع عن كلّ أرض العروبة والإسلام الذلّ والخذلان الذي حلّ بها.

قدّم ابن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي قراءة لكتاب أبيه "عيون البصائر لعلّها تجلو بها البصائر" معرّفا إياه بأنّه ذو أسلوب رصين وقدرة في المعالجة والتفنّن، فقد كان له من المشاركة صفاء البيان، ومن المغاربة منطقية العرض، يستمدّ من القرآن الكريم أسلوبه وإلهامه وبيانه. وقد حوى الكتاب مقالات كتبت في ظرف عصيب وصعب، فعيون البصائر كتاب جمع مقالات جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين، الذي افتتح بمقال حول عودة البصائر إلى العمل بعد إغفائه سنين، متأثرا بآثار الحرب العالمية الثانية، حين التزم أعضاء الجمعية الهدوء والسكوت حتى لا يعرضوا أنفسهم ونشاطهم وجمعيتهم للتنكيل من فرنسا، وأذناها خاصة بعد غلق كلّ جرائد الجمعية، وآخرها البصائر. والدّين عند الإبراهيمي يقين لا يتزعزع وبصائر لا تزيع⁴.

3- فن المقال عند الإبراهيمي:

اتخذ الإبراهيمي من الأدب وسيلة فنيّة لتبليغ رسالته الإسلامية، واعتبر الأدب صورة للإنسان وتعبيرا عنه، وعن كلّ ما يحيط به من مؤثرات، لذلك كان سباقا في فهم أوضاع الأمة، وتشخيص داءها، ووصف دوائها، ورسم

مستقبلها، لأنّ الثّورات غالبا ما تسبقها نهضة أدبيّة وفكريّة تدلّ عليها وتقود الجماهير إلى طريقها⁵ بغية نشر الوعي الحضاري في أوساطها حتى لا تتخلّف عن ركب الحضارة.

وقد استطاع بعبريّة فكره، وبراعة قوله، وقوة عزمته أن يبلغ دعوته ويوضح مقصده، من خلال تدبيح المقالات المتنوّعة بمهارة صحفيّة شامخة، وبراعة خطّابيّة سامقة.

ولا مباحكة في أنّ فنّ المقال من أرقى فنون التّعبير والتّأثير في الأدب العربي؛ ذلك أنّه يعبر بجلاء عن تلك النزعات الوجدانيّة العميقة التي تعكس معاناة الشّعوب والأمم؛ ولذلك نجده قد طغى في أدب الإبراهيمي طغيانا بارزا على ما سواه من فنون النثر، ويرجع هذا إلى ما كانت تمثّله الصّحافة في عهده من أهميّة ما تؤدّيه من دور؛ فقد كانت الوسيلة الوحيدة لنشر الإنتاج الأدبي وحفظه من الاندثار⁶، في ظلّ الدعوات الهدّامة للتراث الأدبي والمحاربة للغة العربيّة.

ولأنّ الإبراهيمي رائد من رواد الإصلاح في عصره، فإنّ فنّ المقالة هو الفنّ الأنجع لتبليغ رسالته الإصلاحية، والأنسب للتّعبير عن عواطفه المتأجّجة، وتفجير طاقاته الإبداعية، التي تتوق لخدمة الوطن والدّود عنه، إضافة إلى هواية الإبراهيمي للصّحافة التي مارسها في جريدة البصائر والتي تعدّ بحق- تراثا أدبيا زاخرا، انطوى على أروع ما أبدعه الرّجل في مجال المقال الذي حمّله رسالة الإصلاح والتّوعية والإرشاد، واستنهاض الهمم، وتنوير البصائر، انطلاقا من واقع المجتمع الجزائري بخاصّة، والعربي الإسلامي على وجه العموم. فتتبع الإبراهيمي لأحداث مجتمعه، وصوغ قضاياها في قالب فني راقٍ، وجمعه بين رزانة المواقف وبراعة التّحليل والطرح، جعله رائدا فنّ المقال في الجزائر بدون منازع.

إنّ الاتجاهات الأيديولوجيّة المناهضة لفكر جمعيّة العلماء المسلمين، والصراعات المحتدمة التي كانت بينهما، أفرزت تطوّرا وازدهارا واسعا لفنّ المقال؛ حيث كانت فترة ما بعد تأسيس جمعيّة العلماء المسلمين، عصرا ذهبيا بحق لفنّ المقالة الأدبيّة بالجزائر. وهذا نتيجة عوامل عديدة أبرزها: انتشار الصحافة العربيّة في الجزائر، حيث "أتيح للنثر العربي الحديث أن يفيد من ذلك الصّراع الحاد فائدة ما كانت لتقع له فيما لو ظلّ السّكون الفكري قائما، والاتفاق في الرأي سائدا. إنّ أجمل المقالات الأدبيّة وأنقاها أسلوبا، وأحرّها عاطفة، وأقواها حجّة، وأوضحها حجّة، نتجت عن هذا الصّراع الفكري العنيف"⁷.

وقد طغى فنّ المقال في أدب الإبراهيمي طغيانا صارخا على ما سواه من الفنون الأدبيّة، وكتب الإبراهيمي مقالات ذات النّفس الطويل، والأسلوب الأنيق والتّحليل المنطقي العميق. ولم تكن كتاباته مغذّية للصّراع القائم آنذاك إنّما اتخذها وسيلة للتّعبير عن أفكاره وآرائه، وأداة للتّواصل الفكري مع قرائه حول أوضاعهم، وسبيل لحلّ مشكلات واقعهم الذي أنهكه طغيان الاستعمار ووحشيّته. فجاءت عيون البصائر حاملة أروع ما كتب الإبراهيمي في هذا الفنّ، بأسلوب بديع في صورة إنسانيّة راسخة لا يمحو أساسها زمان ولا يطمس عمادها مكان.

والمتصفّح لمقالات الشّيخ يجد أنّ معظمها يعالج قضايا إصلاحيّة وسياسيّة واجتماعيّة، ودينيّة، مع وجود بعض المقالات التي خصّصها للحديث عن شخصيّته وحياته الخاصّة، والتي تميّزت بسموّ فكره، و"ارتقاء أسلوبه

الأدبي، وبلاغة لغته الشعريّة، وجمال تصويره الفنّي، وعنايته البالغة بالجرس اللفظي، والإيقاع الموسيقي العام للمقالة⁸، بالإضافة إلى مقالات أخرى خصّ بها محنة فلسطين، ومأساة الشّباب الجزائري، فكانت من أجمل النّماذج التي أفرغ فيها الشيخ زفراته وأناته، وصيّرها فيها أفراحه وآماله.

كما يعدّ إبراهيمي من لفيف الأدباء الذين آثروا الكلام المرسل على القريض مخلفين دررا ونفائس في ميدان الكتابة الفنيّة، فأرسوا بذلك قواعد دولة النثر الجزائري.

وللنثر الجزائري بدايات وجذور تعود إلى القديم، ليستمرّ الخوض فيه إلى غاية العصر الحديث، مواكبا مختلف الأحداث التي شهدتها الجزائر كالاحتلال والمقاومة والإصلاح، والثّورة والاستقلال وبناء الدّولة والإرهاب وغيرها.

ومع ذلك نذكر ونؤكّد على أنّ الحديث عن النثر الجزائري الحديث، لا يكتمل إلّا بوقوفنا عند كتابات العلامة المصلح محمد البشير إبراهيمي، وإن كان يمثل المدرسة المحافظة بل ورائدها الأول الذي تمكن من الجمع في شخصه الكريم بين عدّة توجهات، ذلك لأنّه العالم، والمؤرّخ السّياسي، والأديب، المصلح، والمربي الذي أذعن له هامات الفكر، اعترافا بفضله وجهوده المنصبّة على الارتقاء بالعلم، ولأجله راح يعمل على تأسيس المدارس، ويصحّح طرق التّعليم، بنبذه أسلوب التّلقّي الأعمر الذي لا ينفع. وكذلك تصدّيه لآراء بعض الطّرفيّة التي رآها مفسدة للتّصوّف الحقيقي⁹.

فالأدب هو وسيلة إبراهيمي الفنيّة في تبليغ رسالته الإصلاحية. ومقالاته جنس أدبي له تأثير بليغ في نفوس قرائه.

4- الخصائص الفنيّة والأبعاد الإبداعية للمقالة الإبراهيميّة:

على النّاظر المتعمّق في مقالات إبراهيمي، ودراسة أسلوبه دراسة معمّقة، أن يسعى قبل ذلك إلى التزوّد بالأدوات المعرفية الخالصة، والتي تعينه على كشف بدائع جماليات أعماله، وكنوز ومآثر أفكاره، ويقول عبد الرزاق قسوم في هذا الشأن: "إنّ كلّ قراءة منهجية دقيقة وعميقة للنّص الإبراهيمي -كي تحقّق أهدافها المرجوة- لا بد من أن تسبق بعملية استعداد خاصة، تتمثّل في التزوّد بأدوات معرفية معيّنة، هي بمثابة المفاتيح الابدستيمولوجية التي تساعد على فكّ الألغاز والرّموز، في ما يوشك أن يكون بمثابة الطّلسم المعرفي لهذا النّص، ذلك أنّ الفكر الإبراهيمي تحكمه صعوبة مستعصية على العقل العادي تصنعها غرابة اللفظ، وبراعة الصّيغة، وأناقة الأسلوب، ومرجعيّة المعنى، وهي كلّها معطيات غير متاحة الفهم إلّا لمن أوتي مجموعة من الأدوات المعرفية المتمثّلة فيمالي: الإلمام الشامل بأي القرآن والإحاطة الوافية بقواعد اللّسان العربي، ثم التّعمق الدقيق في المحيط الثّرائّي العربي عموما، والجزائري منه بصفة أخص، والثقافة الموسوعية التي تجمع بين التّاريخ العربي والتّاريخ الأجنبي¹⁰.

4-1- براعة انتقاء الألفاظ:

يوظف الإبراهيمي ألفاظا راقية في نسيجه الأسلوبي، ويدلّ ذلك على إلمامه الواسع بمحفوظ غزير من النصوص الأدبية الراقية، وهو ما أطلق عليه الشيخ تسمية (معرض العربية الراقية).

وقد تمثل الإبراهيمي اللغة معرض لوحات فنية تعرض فيها كرائم الألفاظ العربية المتممّة والمتأنقة.

والمتلقي لنصوص الإبراهيمي يجده قد اصطنع مصطلحين اثنين في هذا الشأن، وهما: المأنوس والغريب، فأما اللفظ الغريب فهو معروف عند أهل اللغة، وأما المأنوس فمصطلح من مصطلحات الإبراهيمي، واللفظ المأنوس هو ما استأنس له المتلقي، وتقبله الذوق بقبول حسن، ولم ينبو عنه سمعه.

ومن خصائص ألفاظه أنّها منتقاة بعناية خاصة، تتّصف بجزالتها، وإيفائها التام بالمعنى، وائتلافها الكامل في النظم، بالإضافة إلى حسن جرسها وروعة موسيقاها.

وقد بنى الإبراهيمي ثقافته على معارف متنوعة ومتعددة، نهلها من معين التراث العربي في عصوره المختلفة، فقد حفظ دواوين الشعر عن فحول الشعراء في الجاهلية والإسلام، كما ألمّ بألوان متنوعة من فنون النثر من أمثال وحكم، وخطب ومقامات، هذا الذي جعل لغته العربية ترقى في أزهى سياقاتها لديه، من خلال خطبه الكثيرة التي كان يلقيها بالمناسبات، ومقالاته الغزيرة التي كان يرسلها لإخوانه وخلّانه. ومن جميل ما قيل في الإبراهيمي عبارات الإطراء التي خصّها به الشيخ عبد الرحمن شيبان رحمه الله في كتابه خصائص أدب الإبراهيمي: "إنّ الأستاذ الإبراهيمي قبل أن يكون إماما مصلحا، وفقهيا أصوليا، ومربيا حكيما، وسياسيا محنكا، كان أديبا شاعرا، وخطيبا مفوها، يهز القلوب ببيان ساهر، يعيد إلى الأذهان ما كان للخطابة العربية من مكانة وسلطان في عهدها القديمة الزاهرة. وهو محدّث بارع لطيف، يعمّر مجالسه بالحكمة، ويجمّلها بالنكتة، ويعطّرها بأريج اللطف، ينعش الأرواح، ويؤنسها بشعاع من الفكر يهدي العقول.. وهو ديوان لأيام العرب وآدابهم وتقاليدهم.. وهو شاعر فحل في الفصيح والملحون يذكرك بالمعري في لزومياته، وأبي الطيّب في حكمه وأمثاله، وشوقي في ملاحمه وبدائعه.. أمّا أسلوبه في الكتابة فمتنوّع بحسب الموضوعات وأحوال المخاطبين والمناسبات، فتخاله أحيانا ابن بسّام في ذخيرته، أو ابن العميد في إخوانياته، أو الزيات في لوحاته.. وتحسبه في بعض الأحيان محرّرا في جريدة يومية، ببساطة وواقعية، من غير إسفاف أو حشو، أو سوقية، فهو بحق معجزة من معجزات الثقافة العربية الإسلامية والبيان العربي في القرن العشرين"¹¹، لكن بخصوصية جزائرية العزيمة، عربية الانتماء، إسلامية المعتقد.

إنّ في البنيوية اللغوية للخطاب الإبراهيمي لسحر عجيب، وسرّ عميق، لا يستطيع القارئ العادي إدراك عباراتها، ولا فك إشاراتها إن لم يكن معدا إعداد لغويّا ومعرفيّا دقيقا، فقراءة مقالاته تحتاج إلى بصيرة نفّاذة، وقرينة وقّادة، وزاد موسوعي خاص.

4-2- الاقتباس من القرآن:

إنّ القارئ لمقالات الإبراهيمي يلحظ مدى تأثره بمعاني القرآن الكريم ولفظه، فنجدّه يتوخّى اقتباس ألفاظ القرآن وتوظيفها، كما ينزع في كتاباته إلى نسق القرآن وأسلوبه، حتى يرتقي بها إلى أعلى مراتب فن القول، وهي دعوة صريحة من الشيخ للأدباء والشعراء إلى ضرورة الاقتباس من القرآن الكريم للارتقاء باللغة العربية لفظا ومعنى.

و"كثيرا ما كان ينعى الأدباء المعاصرين الابتعاد عن هذا المنهل الثر والرائق، والاكتفاء بأساليب هزيلة شاحبة، هي أقرب إلى كلام الجرائد أو أقل إن شئت كلام السوقة والدّهماء"¹².

ولم يكن الشيخ متأثرا بالقرآن الكريم من الناحية اللغوية والبلاغية فحسب، بل كان كثير الاستشهاد به في مقام توضيح أو تدعيم أو انتقاد الأفكار والآراء. ومقالات الشيخ مرصعة بتلك اللفات القرآنية، التي تهزّ النفوس، وتطرب الأسماع، وتبرز ذوق الإبراهيمي الفني الرفيع لمعاني القرآن الكريم وأسلوبه.

وإذا جئنا إلى التمثيل لذلك نجد مقالاته زاخرة بالاقتراس من القرآن الكريم، ونقتصر في هذا المقام على ذكر بعضها تاركين للقارئ متعة تلقّيها ولذة تذوّقها.

قال الإبراهيمي: "يوحى شيطان الاستعمار إلى الحكومة وحيا متتابعا لا فترة فيه، فإذا تلقّت الوحي ونزل به الروح الخبيث على قلبها، نجمته على فترات، وأوحت في كلّ فترة إلى أوليائها ما يثير شرّا أو يوقظ فتنة"¹³.

هذه معان مقتبسة من قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. (الأنعام: 112).

كما قدّم الإبراهيمي وصفا استلهمه من المشهد القدسي الجليل، عند تنزل الذكر الحكيم على قلب نبينا محمد الأمين -صلى الله عليه وسلم- بواسطة جبريل عليه السلام. في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195)﴾ (الشعراء: 192-195).

فجاء بصورة مقابلة ومخالفة، تتمثل في مشهد الروح الخبيث-الاستعمار- وهو يوحى إلى أذنا به وأتباعه زخرف القول غرورا، فيبث في نفوسهم الشرور حتى يحيوا الفتن ويحيكوا المكائد. فكما جعل الله لكلّ نبي عدوا فلالاستعمار كذلك شيطان يوحى له بنشر الفتن والشرور ليهلك الحرث والنسل، وإن لم يشر الشيخ بوضوح إلى المشهد الأول، فلعلمه أنّ الصورة ستوضح مباشرة بعد عرض المشهد المقابل بمفهوم المخالفة.

ومن جميل ما اقتبس فيه الشيخ من القرآن الكريم قوله على لسان أحد خصوم الجمعية: "وإنّني عاهدت نفسي على أن أكون للاستعمار ما كان أبو مسلم الخرساني للمنصور أو ما كان طاهر بن الحسين للأمين، وساءا مثلا... أين يقعان مّي؟ وأين يقع المنصور والأمين من المستعمرين الميامين؟ ... فاجعلوني سيّدا أكن لكم عبدا، وأعينوني بقوة أجعل لكم بين البربر والعرب ردما، ثم لا تينكم منهم بطواير تملأ البوابير"¹⁴. أخذ الإبراهيمي من قصة ذي القرنين الواردة في سورة الكهف في قوله تعالى: قَالَ مَا مَكَّيَّ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95) أَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (الكهف: 95-96)، وهذا حديث صريح على ما يسعى إليه الاستعمار من إحياء النعرات بين الجزائريين بانتهاج سياسة فرق تسد.

وقال الإبراهيمي: "هذا الشمال قد أصبح أهله كأصحاب الشمال في سموم من الاستعمار وحميم وظلّ من يحموم لا بارد ولا كريم، أفسد الاستعمار أخلاقهم، ووهن عزائمهم، وضرب بينهم وبين العلم بسور ليس له باب"¹⁵. مقتبسا من قوله تعالى: { وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ

(43) لا بارد ولا كريم (44) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (الواقعة:41-46).

شبه الإبراهيمي سكان الشمال ممن أفسد الاستعمار أخلاقهم وطباعهم بأصحاب الشمال أي أهل النار وأصحاب الأعمال المشؤومة، فهم أهل المعاصي في الدنيا، استسلموا لدعوى المستعمر فغربهم عن الدين والخلق القويم، ونشر بينهم الجهل والدل والهوان.

نلاحظ أن الإبراهيمي حين يعمد إلى تكوين الصورة التعبيرية من القرآن؛ يتدبر معناها وكل ما يحيط بها من أبعاد، وكل ما يضيف عليها من ظلال وإيحاءات فنية غاية في الروعة والجمال.

هذا غيض من فيض الأمثلة التي تعكس هيمنة الروح القرآنية على هذا العالم الرباني الجليل، والتي ذكر منها الكثير في مقالاته وخطبه، وأثر القرآن في أدب الإبراهيمي يبدو جليا، فهو في مساس دائم مع الظواهر الفنية والمعنوية لديه، سواء في جانب التعبير، أو في جانب التصوير، أو في جانب الإيقاع. وليدرك القارئ كنه هذا الاقتباس وأبعاده، عليه أن يدرك القرآن الكريم، ويعتاد إعجازه البياني، وبرهانه الرباني، لأنه الآلية المعرفية الأولى والضرورية لقراءة "عيون البصائر".

3-4- إيثاره لأسلوب التّهمك والسّخرية:

تميّز أسلوب الإبراهيمي بخصائص عديدة من أبرزها التّهمك والسّخرية، وهذه سمة اتّسمت بها الكتابة عند كبار الأدباء في العصر القديم والحديث، غير أن الإبراهيمي لم يستعمل هذا اللون في كل ما يكتب، إنما كان يختاره تماشيا مع المقام الذي يقتضيه؛ ونجد هذه الخاصية في مقالاته، خاصة منها تلك التي يتحدث فيها عن الاستعمار الفرنسي وأشياعه وممارساته، أو تلك التي يتحدث فيها عن خصوم جمعية العلماء المسلمين أو الصهاينة وجرائمهم ومكائدهم. وحرصا منه على إتمام مهمته الخطابية على أكمل وجه، قام بتوظيف كل ما توفّر له اللغة من إمكانات لغوية وبلاغية، ليكون كلامه أكثر عمقا وغورا وأشدّ تأثيرا وإقناعا. وأسلوب التّهمك من بين الأساليب التي وظّفها الشيخ في مقالاته للتعبير عن مقاصده.

والتّهمك من الموضوعات البلاغية المهمة، باعتباره وسيلة تواصل وتأثير وإقناع، وهنا تكمن أهميته، وإذا كان الأصل في الكلام أن يأخذ طابع الجدّ، لأنّه الوضع الطبيعي له، غير أنّه في بعض الأحيان لا يؤدي المعنى المطلوب، لذلك يضطر المتكلّم إلى الخروج من دائرة الجدّ إلى دائرة الهزل والتّهمك، لاقتضاء الحال الذي يحقق له النّفع والجدوى.

وقد اعتمده الإبراهيمي باعتباره نمطا من الأنماط الخطابية، وظاهرة أسلوبية، تتحقّق في كثير من الأساليب في علمي المعاني والبيان، لكونه يمثل أبرز مظهر من مظاهر مخالفة المعنى الظاهر لللفظ، لأنّه من وراء العنصر التّهمكي نجد أبعادا وأغراضا تنطلق من وعي المخاطب لهدف التّيل أو الفضح أو الإدانة. في شكل ملفوظات قابلة

للتأويل من قبل المتلقي. حيث لا يكفي مجرد الوقوف عند ظاهر اللفظ، بل لابد من الإحاطة بالسياق وقرائنه لتحقيق المقصد والغاية¹.

انطوت مقالات الإبراهيمي على معاني التَّهْكُم بكثرة فكان شكلا من أشكال المقاومة والانتقام، تميزت في أساليب إنشائية وأخرى بيانية.

ومن نماذج الاستفهام التَّهْكِي في عيون البصائر قول الشيخ في مقال بعنوان: "عادت لعترها لميس": "وحسب الاستعمار ديمقراطية أن يحاكم معلّي العربية والإسلام، ويسجنهم على التعليم، كما يحاكم المجرمين، ويسجنهم على الإجرام في محكمة واحدة، وسجن واحد، وظرف واحد، وقد يكون يوم الجمعة في الغالب، أليس هذا احتراما للإسلام ومن مصلحته كما يقول العاصي؟ أليست هذه هي الديمقراطية؟ فمالكم تكذبون؟"¹⁶.

"عادت لعترها لميس" مثل، والعِزُّ: هو الأصل، ولميسُ امرأةٍ كانت لها عوائدٌ شرٌّ تعتادها، وأخلاقٌ سوءٌ تفارقها ثمّ تقارفا لغلبة الفساد فيها وصيرورته أصلاً في طباعها، فسيرت العربُ فيها هذا المثل الذي يضرب لمن يرجع إلى عادةٍ سوءٍ تركها.

فإذا ما تأملنا هذا المنجز الخطابي لوجدنا أنّ لهذه الاستفهامات معنى مباشرا دلّت عليها أداة الاستفهام اللّغوية (الهمزة)، فبالرغم من حملها لقوة إنجازية حرفية، إلّا أنّ هذه الدلالة الشكّلية لا تكفي للوصول إلى المعنى المراد-إذن-لم تعد العلامة اللّغوية دالة على الاستفهام، والذي يرجى منه طلب الفهم؛ لأنّ الإبراهيمي-باعتباره المستفهم- عالم بالإجابة، فأسلوب الاستفهام في هذا الخطاب جيء به لغرض لفت الانتباه؛ فالإبراهيمي يعلم جيداً أنّ الأخبار المباشرة-عادة- لا تحقق الغرض المقصود، وهو التأثير في المخاطب، وتحريك ذهنه. هذا ما قال فيه الجرجاني: "واعلم أنّا وإن كنّا نفسر الاستفهام في مثل هذا الإنكار، فإنّ الذي هو محض المعنى، أنّه لينتبه السامع، حتى يرجع إلى نفسه، فيخجل ويرتدع، ويعي بالجواب"¹⁷.

أمّا الجملتان المنفيتان فقد استهلّهما بـ "ليس":

_ أليس هذا احتراما للإسلام؟

_ أليست هذه هي الديمقراطية؟ ودور ليس هنا هو التقرير لما بعد النفي.

ويرى علماء اللّغة أنّ "ليس" قبل دخول "همزة" الاستفهام تعني نفي مضمون الجملة في الحال، وإذا دخلت عليها "همزة" الاستفهام أفادت التقرير؛ والتقرير معناه حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده¹⁸، ولا يتأتى للمخاطب إنكار بعد ذلك؛ أي إنّ الاستعمار ديمقراطي ويحترم الإسلام، وهذا ظاهر كلام "الشيخ الإبراهيمي"، أمّا ما يرمي إليه كلامه، فيقتضي منا أن نقوم بتأويل هذا الملفوظ تأويلاً آخر؛ إذ لا يستقيم عقلاً أن يكون الاستعمار ديمقراطياً وهو يمنع التعليم، ولا يقرّ أحد أن محاكمة المعلمين ومعاقبتهم كمجرمين في يوم الجمعة، يعد احتراماً للإسلام، فالاستعمار ليس أهلاً لمثل هذه الصفات (الاحترام والديمقراطية)، فهذا كلام

¹ آثار الغمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 341.

لا يتناسب مع السياق الذي وردت فيه، مما يدفعنا دفعا إلى تأويل هذا القول، بسبب وجود مفارقة بين الكلام ومقتضى الحال، لأنّ علاقة الشيخ بالاستعمار الفرنسي علاقة عدائية. ولهذا عمد إلى استعمال هذا الأسلوب التّهكمي، بوصفه مفارقة مؤقتة، سرعان ما ينتبه إليها المخاطب ويكتشفها.

إنّ صفوة الكلام أنّ الإبراهيمي أراد حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بطريقة عكسية، على أن الاستعمار الفرنسي لا يؤمن بالديمقراطية، مستخدما أسلوب الاستفهام لتنبيه المخاطب وإقناعه، ثم ختم الاستفهام بقوله (فما لكم تكذبون؟)، الاستفهام باستعمال أداة الاستفهام "ما"، والإنكار على كلّ من يكذب أنّ الاستعمار غير ديمقراطي؛ أي إنّ هذا الخطاب خرج عن غرضه الحقيقي إلى غرضه البلاغي، لإقناع المتلقي والتأثير فيه. بيد أنّ هذا المعنى المستلزم المستفاد من تركيب الجملة "فما لكم تكذبون؟" لا يتناسب مع السياق الذي وردت فيه، ومن ثم يترشح هذا المعنى الإنكاري العتابي إلى المعنى المضاد تماما، لتتوصل إلى المعنى المقصود؛ وهو التّهم والسّخرية بكل من يسير في ركاب الاستعمار، والتّعجب من كل من يصدق أقواله الكاذبة، وهنا تكمن جمالية التّهم باستعمال أسلوب الاستفهام؛ لأنه أجدى فائدة من استعمال الأسلوب التّقريري الخبري الجاد.

وأسلوب الأمر التّهكمي من بين الأساليب التي أكثر الشيخ الإبراهيمي استعمالها في مقالاته، توسلا بها إلى إهانة خصمه، والاستخفاف به، والتّيل منه، ومن أمثلته ما جاء في مقال له بعنوان "إلى الزاهري" يقول فيه: «أتذكر يا شيخ ماضيك الصحافي، وصحائفك الماضية التي تهاوت في مثل عمر الزهر من الجزائر إلى البرق إلى الوفاق، وقد ماتت كلّها بالهزال والتّسمم، ولو كانت مما ينفع الناس لمكثت في الأرض، فاحتفظ بما بقي من أعدادها، فسيحتاج الناس إلى ما فيها، يوم ينكس الله طباعهم، ويطمس على أبصارهم، فيصبح السّب والكذب عندهم من الفنون الجميلة، فيشيدون المعاهد العالية لتعلمها، ويقتبسون النّماذج الرفيعة من تلك الجرائد»¹⁹. "ففي هذا المنجز الخطابي أكثر من موضع تهكمي، وقد بدا بارزا في استعمال المخاطب فعل الأمر "فاحتفظ"، الذي وضع في الظاهر للدّلالة على الأمر، لكننا في الحقيقة لا نلمس فيه أثرا للأمر الحقيقي، وذلك لما امتنع إجراؤه على الأصل، وتحول إلى معنى مجازي، مستوحى من السياق وتتبع التراكيب، فعلى أساسهما يتوصل إلى المعنى المقصود، لما عجز ظاهر الكلام عن الكشف عنه، وهنا تستحيل البنية اللغوية مجرد ممّر ومعبّر للوصول إلى الغرض المجازي الذي يقصد إليه المتكلم. فإذا تأملنا الملفوظات الآتية "احتفظ بما بقي من أعدادها فسيحتاج إليها الناس. ثم يذكر سبب الاحتفاظ: فيشيدون المعاهد العالية لتعلمها. ويقتبسون النّماذج الرفيعة من تلك الجرائد. وجدنا أنّها لا تتلاءم مع السياق الذي وردت فيه، يبدو أن المخاطب لم يكن صادقا فيما ذكر، على اعتبار أن ما صرّح به يناقض تماما ما يضمّره، ويخفيه في نفسه، ومن ثم أحدث تناقضا بين الكلام ومقتضى الحال، وهذا ما جعل كلام الشيخ كاذبا في نظر خصمه. ومعلوم أنّ الصحائف التي أمره بالاحتفاظ بها ليست لها قيمة في نظره، والدّليل على ذلك: "أنها كلها تهاوت في مثل عمر الزهر، ولو كانت مما ينفع الناس لمكثت في الأرض"، ولما عجزت أن تتبوأ مكانا لها بين الجرائد الأخرى، ها هو ينصحه بالاحتفاظ بأعدادها، فسيحتاج الناس إليها يوم ينكس الله طباعهم، وإغراقا في التّهم به والاستخفاف بجرائده، يبين أنّه سيكون لها شأن يوم يكون السّب من الفنون الجميلة، وحينئذ ستشيد لها المعاهد العالية لتعلمها، وتقتبس منها النّماذج للاحتجاج بها، وهذا الأسلوب الذي

ظاهره مدح وباطنه قدح تتجلى بلاغة المعنى المقلوب، وتبرز جمالية التهكم في هذا المقطع، وقد لجأ إليه المخاطب لما أعياه الكلام المباشر في التعبير، ووجد أن النظرة الصارمة لا تجدي ولا تثير، فالمخاطب سيتمكن من الوصول إلى المعنى المضمّر، لكونه يتمتع بقدرة لغوية وذوق بلاغي يجعله قادرا على إدراك المعنى المضاد.

ومن أمثلة التشبيه التّهكمي ما جاء في مقال للشيخ بعنوان: "أفي كل حي عبد الحي". يقول معلقا على مؤتمر الزوايا الذي عقد برئاسة "عبد الحي الكتّاني" بإيعاز من فرنسا: "ودرجها في مدارج التسليك الحكومي إلى مقام التجرد والفناء، فلما تمّ له ذلك منها، وأصبحت منه كالميت من غاسله، صرفها في أغراضه وسخرها في مصالحه"²⁰. إن ما يشدّ انتباهنا في هذا المقطع استلزام الشيخ لمصطلحات علم التصوف في مثل: "التسليك، ومقام التجرد، والفناء، وأصبحت كالميت من غاسله"، وهذه المعاني شريفة إذ كان المقصود منها بلوغ المرء إلى درجة الصفاء والنقاء التي تقربه من ربه، غير أننا نرى "الإبراهيمي" استوحاها من أجل التّهمك برجال الطريقة والسخرية منهم، ولقد جاء توظيف هذه المصطلحات مناسبا في هذا السياق، لأن الاستعمار يعتمد على التّهمك الطرقي في التعامل مع رجال الدين المنتسبين إلى الطريقة، ومن أجل بلوغ هدفه، وتحقيق مراميه، يروضهم على أن يكونوا عبيدا مأمورين، فإذا تمّ له ذلك، سخرهم حينئذ لمصلحته. هذا المنجز الخطابي من حيث الظاهر يبدو لنا أنّ معناه شريف، يستعمله علماء السلوك في مقامات معلومة كالّتوكل، والرضا، ويقصد بها انطراح القلب بين يدي الربّ بتدبير شؤون عبده الضعيف، ومن جانب آخر تترأى لنا قوة تعبيرية؛ تتمثل في كون علاقة رجال الطريقة بفرنسا، كالميت بين يدي المغسل غير أن هذا المعنى يمنع المقام حملة على الحقيقة فهم ليسوا أمواتا حقيقة، وهنا يتحتم علينا أن نبحث في السمات المشتركة بين المشبه والمشبه به؛ أي (بين رجال الدين، والميت)؛ فنجد أنّ وجه الشبه بينهما بعد المقارنة يجتمعان في صفة فقدان الإحساس بالذات، وسهولة الانقياد، وهذا هو البعد البلاغي من قوله: «وأصبحت منه كالميت من غاسله». ومجمل القول إن "الإبراهيمي" عبّر عن قصده بألية التشبيه التّهكمي، في حين كان يريد التلميح إلى سمة معينة لا تتبادر إلى الذّهن مباشرة؛ وهي هذا الانقياد التّام للمستعمر، باستخدام التعبير الاصطلاحي (أصبحت منه كالميت من غاسله)، في مقام علاقة رجل الدّين بالمستعمر، والأصل استعماله في مقامات التّوكل، والرضا مع الله عزّ وجلّ.

وهذا نموذج آخر يبيّن مدى تفضيل "الشيخ الإبراهيمي" استخدام تقنية الاستعارة التّهكمية، جاء في مقال له بعنوان "فصل الحكومة عن الدين" يقول فيه: «وكانّ الرجل استوفى جميع حقوقه ومنها حق الانتخاب، وجنت يداه جميع الثمرات، ومنها ثمرة الانتخاب، ونال جميع الحريات، ومنها حرية الانتخاب، وبقيت المرأة المسلمة محرومة من ذلك، فوجب على الحكومة العادلة، وعلى المجلس الرحيم أن ينصفها، وأن يرفعها عنها هذا الإجحاف، وأن يعجلا لها بالحق الضائع، والثمرة المعصوبة، إذن فلتحي العدالة، ولتحي المساواة»²¹. ففي هذا المنطوق الاستعاري التّهكمي، وظف الإبراهيمي الاستعارة التّهكمية، ليكون خطابه أشد تأثيرا في المتلقي، بإظهار الخطط المحبوكّة التي تحيكها السياسة الاستعمارية للمرأة المسلمة، التي لم تنل حقها في التعليم، وحظها من العلاج، ونصيبها من الرعاية. وتتخطى الحكومة كل هذه الحقوق، فتعطيها حق الانتخاب، وتقحمها في السياسة التي لا تحسنها المرأة المتعلمة، فضلا عن الأمية، معلنة أنها تريد رفع الإجحاف عنها، وإنصافها، فأراد الإبراهيمي أن يفضح النية المبيتة للسياسة الاستعمارية، فاعتمد الأسلوب غير المباشر، مستخدما تقنية الاستعارة التّهكمية،

فجاء كلامه على خلاف مقتضى الحال، فوصف الحكومة بالعدل، والمجلس النيابي بالرحيم، مستخدماً ألفاظ الإجلال موضع التحقير. ومعلوم أنّ هذه الصفات لا تتحقق في الحكومة والمجلس، وإنّما عمد إلى ذلك للتعبير عن معنى مضاد في نفسه، فاستعار لفظة "العدالة" للمشبه بدل لفظة "الجائرة"، ولفظ "الرحيم" بدل "المستبد". وقد دلّ هذا على أنّ الكلام لا يراد على حقيقته، والقرينة التي تمنع من إرادة المعنى الظاهر قرينة مقامية، تفهم من سياق النص. وإمعاناً في السخرية والتّهمك يعلن تأييده لهذا القرار الصائب من الحكومة والمجلس، اللّذين أنصفا المرأة، وأعادا لها حريتها، وساوا بينها وبين الرجل في الحقوق بقوله: "إذن فلتحي العدالة ولتحي المساواة"، بهذا الأسلوب المتّهم الذي يخفي وراءه ألماً وحسرة للوضع المزري، الذي آلت إليه البلاد من جراء المحتل، والمعنى المقصود هو التّهمك الموجه من الإدارة والمجلس.

يعد أسلوب التّهمك من أهم الظواهر اللّغوية التي نلمسها في أسلوب الإبراهيمي التي نوع فيها بحسب ما توافر له من دوافع وظروف، وبحسب ما تراءى له من تهكم وتفكّه، إذ ليس هنالك قواعد تضبط أنواع الأساليب السّاخرة التّهمكية، ولا أشكالها، ولا قوالها، وإنّما يوظّفها الخيال الواسع.

4-4- النزعة المنطقية والاتجاه العقلي:

كان العقل الإبراهيمي ذو مكونات متنوعة، وكان لها بالغ الأثر في صقل موهبته، وتعدد روافد مقدرته الإبداعية، فهو عبقرى لا يجود به الزمان إلّا نادراً، يتلمّس الدارس لنثره راحة عقله، ورصانة منطقته دون إسفاف في قول أو جور في حكم، أو تناقض في رأي، وهذا ما ينفي عنه شبهة ريادته وانتمائه لمدرسة الصّنع اللّفظية، والتي تهتم بالألفاظ على حساب المعاني، فتعمل على انتقاء أعذب الألفاظ وأحسنها جرساً وموسيقى إلى درجة الانسياق وراء الشكل والذهول عن المضمون. وهذا — في الحقيقة — سوء تقدير لأسلوب الشيخ، فالإبراهيمي ذو النزعة العقلية الصارخة ذات التجليات الواضحة بمقالاته. فطريقته في شرح آرائه تفضي إلى إقناع المتلقّي لأفكاره، ودحض حجج المخالف، وإقحام فكرة الخصم المناوئ. فقد واجه شبهات المستعمر بالعقل والمنطق والاستدلال والقياس. وفي هذا يقول شكري فيصل-رحمه الله- "ثقافة الإبراهيمي الإسلامية وخاصة في علمي المنطق والأصول، وهما العلمان اللذان يضبطان التفكير عند الإنسان، ويعملان على إيجاد القواسم المشتركة بين المنظرين والمفكرين والمتناقشين والمتحاورين، ويكوّنان اللّغة المتبادلة بينهم- جعلت معالجاته حافلة بالقواعد المنطقية التي ينزل عندها كلّ ذي عقل سليم"²².

ومن ممارساته المنطقية في مقالاته، بناء النتائج على المقدمات مثلما يفعل علماء المنطق، ومن ذلك قوله وهو يتكلّم عن "العاصمي" (المفتي الحنفي): "إنّنا لنعلم الشّر في هذه النعمة الجديدة، وهي إدماج العاصمي في ذوي الأتباع، فهي تريد إيهام البسطاء بأنّ له أتباعاً حتى تقيم منه ومنهم معارضة في سبيل الحق، ومن زين له المنطق أن يجعل الشاذ قاعدة فكيف لا يهوّن عليه أن يجعل من الفرد أمة، ومن الخيال حقيقة، ومن المحال ممكناً؟ وإنّ المقدمة الأولى لنتيجتكم هذه قد سبقتها بأعوام يوم أمسى ناسخاً في محكمة موجودة فأصبح رئيساً لمذهب معدوم، فتباعد طرفي القضية يقدح في هذا الإنتاج. فإذا سوّغ لكم منطقكم أن تقولوا: هذا مفتي مذهب، وكلّ مفتي مذهب له أتباع فلا تأمنوا أن يقول قائل: إنّه مفتي مذهب غير موجود، فله أتباع... غير موجودين"²³.

كما قال في نفس المقال معللاً هجومه على "العاصمي" وأشياعه من الماشين في ركب الاستعمار: "هذه أهدافنا، نسدد إليها سهام التجريح، وهي مبادئ ظهرت بمظهر رجال أو رجال صيّرهم قابلية الاستعمار مبادئ، ولكن ما بالهم كلّما مسّهم النقد بحرارته صاحوا وناحوا، وثاروا وخاروا، وتظلموا وتألّموا"²⁴.

وتعدّ نزعتة العقلية من الأبعاد الإبداعية لفن المقال عند الإبراهيمي، والتي تجلت في سيل من الأفكار يتوالد لديه باستمرار، ومن تلك الأفكار فكرة طرحها الإبراهيمي مرات عديدة في غمرة جهاده في قضية "فصل الدين عن الدولة" في أوت من عام 1949م، وهي فكرة "القابلية للاستعمار"، التي بنى عليها مالك بن نبي فكره وفلسفته عن صناعة الحضارة، فنجدّه يستعمل المصطلح ذاته في قوله: "...فإذا حاربنا اسماً من هذه الأسماء، فإنّنا نحارب الفكرة التي رضي صاحبها أن يمثلها، والصوت الذي رضي أن يكون بوقاً له، لا الشخص الذي تحدّه الحدود، وتنميه الجدد؛ والفكر إنّما يتمثل في المظاهر ذات القابلية، والناس يحملون من طبائع الأرض ألواناً شتى، ففهم القار المكين، وفهم القابل للانخساف والمتداعي للانهار"²⁵.

وقد تناول الشيخ نفس الفكرة بأسلوب يقارب الأساليب السابقة في مقال نشر في سنة 1951م، قال فيه: "وغاب عن فرنسا- وهي تحوّل هذا التديير- ما يغيب عن كلّ مستكبر جبّار، وهو درس القابليّة في الأشياء، ولو درّست لهداها الدّرس إلى الحقيقة، وهي أنّ الإسلام والعروبة شيئان ليست فيهما قابلية الذوبان والانمحاء، لأنّ فيهما من أثير الله ما يعصمهما من ذلك، وعليهما من أصباغ الشرق الخالدة ما يحفظهما من التآكل والتّحات"²⁶.

هذه المصطلحات التي استعملها الإبراهيمي في ثنايا حديثه عن سياسة المستعمر، وجدت الطرف مهياً لتمريرها لدى المستعمر، وهي الاستعداد للمرض، وقابلية الاخساف، أو قابلية الذوبان والانمحاء، أو قابلية الاستعمار، وتعكس وعيه العميق المبكّر الذي سبق بفكرة "القابلية للاستعمار" المفكر "مالك بن نبي"، ولا مجال لافتراض أنّ "الإبراهيمي" استلهمها من "مالك بن نبي"، لأنّ الطبعة العربية لكتاب "شروط النهضة" لم تظهر إلّا في أكتوبر 1960م بمصر، أما عن توافق أفكار الرجلين فهو- حسب اعتقادي- ناتج عن معاشة الظروف نفسها، وانشغال كل منهما بالوقوف على قضايا المجتمع والأمة محاولين تشخيص الداء واقتراح الدّواء، من خلال دراسة سيكوسوسيولوجيا الإنسان العربي عموماً والجزائري على وجه الخصوص، والاشتغال بالمتلازمة نفسها متلازمة السقوط والبناء، كظاهرة إنسانية اجتماعية. غير أنّ مالك بن نبي لم يكتف بمجرد التشخيص والتحليل، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، وهو بناء مشروع النهضة، الذي يفضي بالأمة إلى بناء حضاري رفيع.

ونلمس براعة العقل الإبراهيمي حين ينزع إلى الاستنباط العقلي، فيقابل بين الأفكار الصحيحة والفسادة، ليلفت الانتباه، ويأسر العقل، ويشد البصيرة بتقديم الإichاءات، وتفعيل الإحالات، فيقول في مقتطف مخاطباً العقل: "العلم... العلم... أيّها الشباب، لا يلهيكم عنه سمسار أحزاب، ينفخ في ميزاب، ولا داعية انتخاب في المجامع صخاب، ولا يلفتكم عنه معلل بسرّاب، ولا حاو بجراب، ولا عاو في خراب يتأتم بغراب، ولا يفتنكم منزو في خنقة ولا ملتو في زنقة. ولا جالس في ساباط، على بساط يحاكي فيكم سنّة الله في الأسباط، فكل واحد من هؤلاء مشعوذ خلاب، وساحر كذاب"²⁷.

كلّ ما عدّده الإبراهيمي من الظواهر المقيمة في المجتمع، حدّر منها ومن مخاطرها بمخاطبة العقل الطلابي وحثّه على طلب العلم وتحصيله.

فالخطاب الإبراهيمي-بذلك- يأبى إلّا أن يأخذ حظّه من المنهج الفلسفي العقلي، ليحقق هدفه في قوة الحجة، ومنطقية الدليل، مع الموازنة بين الفلسفة والدين دونما غلو أو إفراط.

4-5-حسن الوصف وجمال التّصوير:

على الرغم من أنّ الإبراهيمي كان يطرح مواضيع ذات طابع إصلاحي اجتماعي أو سياسي، أو فكري، إلّا أنّه لم يكن بمنأى عن الإبداع اللّغوي والفنيّ، فكثيرا ما انطوت أعماله على لفتات فنية، واصطبغت بصبغات جمالية، خاصة إذا ما نزعنا نفسه إلى الوصف، فقد كان وصفاً ماهراً، أعانه في ذلك ما أوتي من مكنة لغوية، وحسّ مرهف، وذوق سليم، فملك ناصية اللّغة العربية، وكان القارئ لمقالاته يستشعر دقّة الوصف، وروعة السّبك حين يمثل المشهد في صورة حقيقية أمامه. تأمل المشهد التّصويري له لأحد المستشرقين الذين حاولوا جاهدين الإساءة للدين الإسلامي، والانحراف بأذهان الغرب-ممن لم يعرفوا الإسلام حقّ المعرفة-عن الحقيقة، بتصويره لهم في شكل طقوس سخيفة يؤدّيها بعض المبتدعين من المتصوّفة: "وقد أوحى إليهم هذا المستشرق...أن يجتمعوا والميقات يوم معلوم في صعيد واحد على اختلاف نحلهم، ويمثّلوا بغاية الدّقة أمام آلة التّصوير السينمائي، كلّ ما في الطرق من مهازل ومخاز على أنّها شعائر إسلامية...ففعلوا، ولعبت السّفايف البطون، ولعبت الأشداق بقطع الزجاج وأوراق الهنديّ الشائكة، وخرجت الحيّات والأفاعي من أسفائها، لتزيّن هذا المشهد (الإسلامي)، ولا تنس- فإنّ القوم لم ينسوا-الأعلام المرفرفة والبنادير المبهفة والشارات المختلفة، والكرّ والإيجاف، والرّقص والارتجاف، كلّ ذلك والآلة المصوّرة لا تغادر كبيرة ولا صغيرة إلّا سجّلتها، وخرج من كلّ ذلك فيلم سينمائي محبوب، ليعرض على العالم المتمدّن مكتوباً عليه (هذا هو الإسلام)، ولم ينقص من كماله إلّا أنّ السينما لم تكن ناطقة إذ ذاك، ولولا ذلك لسجّلت الأذكار والآهات والشّخرات والنّخرات، و لتشرّفت عواصم الحضارة بسماع الشّبليكو يا إلهي"²⁸.

ألّا تشعر وأنت تقرأ هذا الوصف بهذه الدّقة، أنّك تشاهد شريطاً مسجّلاً لهذه الطقوس، وكأنّها تؤدي أمام ناظريك؟ هنا تكمن دقّة التوصيف وبراعة التصوير لدى الإبراهيمي.

ومن طرائف المشاهد التي استهجنها قيمه الخالصة وأنفتحت عقيدته الصّافية صورة المجذوب الذي يبيع دروشته ويمثل دور المخبول الزاهد الرباني فيقول: "...فهل يجب التسليم عندكم للمتخمّر إذا تخمّر، فعبث بالمقامات العليا، من نبويّة وملكيّة وألوهيّة، ويجب التسليم عندكم للمشعوذ إذا تشعوذ، وللشيطان إذا استحوذ، والمجذوب إذا اختلت أعصابه، وضاع صوابه، وسال لعابه..."²⁹.

أمثلة التّصوير الفنيّ كثيرة وُشّيت بها مقالات "عيون البصائر"، تشدّ دارس أدب الإبراهيمي، فلا يسهو له عقل، ولا تغفو له عين، لمتعة تذوقها، وحلاوة تلقاها.

4-6- نقاء الشعور وصدق العاطفة:

يمتاز أسلوب الإبراهيمي بعاطفة صادقة جياشة، لانت عطفًا على حال الجزائر وأبنائها، أحزنتها مشاهد البؤس والفقر والشقاء، فلم يدخر الإبراهيمي رقّة شعوره وصدق إحساسه وحرارة عاطفته تجاه وطنه الأول الجزائر، ووطنه الثاني فلسطين. فيها هو يبوح للجزائر بعواطفه حين يناجيها قائلاً: "...لن أنسى-يا أمّ- أنّك كنت لي ماحطة الغرس وماشطة العرس، فلا تنسي أنّي كنت لك من عهد التمام إلى عهد العمائم، وما شغلت عنك إلا بك، وما خرجت منك إلا عائداً إليك، ولا تنسي أنّي ما زلت ألقى الأذى فيك لذيذاً، والعذاب في سبيلك عذبا، والنّصب في خدمتك راحة، والعقوق من بعض بنيك براً، والحياة في العمل لك سعادة، والموت في سبيلك شهادة"³⁰.

أما عن فلسطين فقد فاضت المقالات توصيفا لعاطفة الإبراهيمي الجريحة، وتأييدا للضمير العربي النائم، منها مخاطبته العرب بنبرة عنيفة جراء تقاعسهم في نصرّة فلسطين الحبيبة، إذ يقول: "أيها العرب، إنّ الواحد منكم يموت له الطّفل الصغير فيلتزم الحداد ويتدثر السّواد، ويمرّ عليه العيد فلا تزدهيه ملابسه، ولا تستهويه ملابسه، ولا ينزع لباس الحزن إلى وفاء السنّة، يتحدّى بذلك نصوص الدين المنصوصة، وأحوال الدنيا المخصوصة، وقد ماتت فلسطين وهي أعزّ شهيد، وأحقه بالحزن عليه فويحكم أي أهون مفقود عليكم؟ أم أنّ نخوتكم ماتت معها؟ إنّها-والله-لأولى بالحزن عليها من كلّ محزون عليه... وإنّ ممّا يُذكي نخوتكم، ويزيدكم حرارة حزن القتل، وخفّة طيرةٍ للأخذ بثأره: خِسّة القاتل فأين أنتم يا هداكم الله؟"³¹

كلّ من يقرأ للإبراهيمي بعمق وتدبّر، يلمس فيض عاطفته وصدق شعوره، الذي غذته مشاهد الفقر والجهل والتخلف بوطنه وبالعالم العربي، ففاضت جراحا وحزنا وعطفًا أفرغه بمقالاته.

4-7- الحكمة ونفاذ البصيرة:

يعدّ الإبراهيمي صاحب حكمة بالغة، وبصيرة ثاقبة، انطوت مقالاته على مقاطع حكمية، عكست تجاربه الغزيرة في الحياة وتدبّره العميق لكتاب الله-عزّ وجلّ-واطلاعه الواسع على تاريخ الأمم والشعوب، ناهيك عن حسن السّبك وجودة الحيك، ورونق اللفظ وجمال النّظم، ومن حكمه قوله: "إنّ القوّة إذا لم يزنها العقل ضعف، وإنّ العلم إذا لم تحطه الحكمة جهل... وربّ العباد"³².

ومن روائع حكمه قوله: "إنّ ظلم الكلمات بتغيير دلالتها كظلم الأحياء بتشويه خلقتهم"³³.

ومن حكمه البالغة التي ألقاها على قرائه قوله: "إنّ بيع القلم واللّسان، أقبح من بيع الجندي لسلاحه"³⁴. وتعدّ هذه الحكمة ميثاق شرف وضعه الإبراهيمي لكلّ عالم أو مثقف مشغول بقضايا وطنه، إن زاغ عنه فقد ضميره وذمّته.

4-8- التّوظيف البديعي البارع:

تميّز عصر الضعف بتحجر العقول وجفاف القرائح، حيث انصرفت همم الكتاب إلى التقليد، فضعت معانيهم وتهللت أفكارهم، وجعلوا الاهتمام بتنميق الألفاظ مبلغ غايتهم، فتوشحت الكتابة بألوان البديع المختلفة تكلفاً حتى نبا عنها الطبع السليم، وأبتها القريحة الصافية.

ويجمع معظم الدارسين للأدب، أن لا أحد من المعاصرين نال من التوفيق في استعمال المحسنات البديعية اللفظية والمعنوية، ما ناله الإبراهيمي، إذ نتذوق جمال الطباق والمقابلة، والجناس والسجع، وغيرها من المحسنات البديعية بمذاق مختلف عن استعمالات الآخرين، وسرّ ذلك اجتماع فصاحة اللفظ مع حسن المعنى في أساليبه، فكانت تراكيبه بديعة وأساليبه رفيعة، تحاكي أساليب الفصحاء والبلغاء القدامى، لأنّه ربّى ملكته الأدبية بالدربة والمران، ومحاكاة التراث اللغوي القديم.

وللإبراهيمي قطع فنية رائعة اهتم فيها برصف المحسنات، فكانت كخاتم الذهب الخالص المرصع بالماس. ومن روائع ما تذوقنا من مقطوعاته الموسيقية ما استهلّ به جريدة "البصائر" في قوله: "وهذه جريدة البصائر تعود إلى الظهور بعد احتجاب طال أمده وكما تعود الشمس إلى الإشراق بعد التغيّب، وتعود الشجرة إلى الإيقاق بعد التسلب فلا يكون اعتكار الظلام وإن أعرى الأشجار باشتداده إلا خزنا لقوة الحياة في الأشجار والشمس موجودة وإن غابت عن نصف الكون. والشجرة حيّة وإن أفقدها الصرّ جمال اللون، كذلك صحيفة البصائر، احتجّت صورتها عن العيان، وإن كانت حيّة في النفوس، ممثلة في الأفكار"³⁵.

وتأمل روعة توظيفه للبديع في ثنايا حديثه عن حقيقة أطماع الغرب ببلاد العرب إذ يقول: "إنّ الفارق بين لفظي العرب والغرب نقطة، وفيها كلّ السرّ، وفيها كلّ الشرّ، وقف الغرب بالباب، فلم تتحرّكوا، ثمّ أنشب الظفر والناب، فلم تستدركوا، ثمّ دسّ أنفه في التراب فوجد رائحة الزيت، ثم طلب الوقوف بالأعتاب، فوطأ ثم له أكناف البيت.. إنّ الزيت إدام، ازدحمت عليه الأقدام، فحرمه الجبان وحازه المقدام، وكان حظّهم منه حظّ الطبّاخ الصّائم: زهما في اليد ورائحة في الأنف، فيها أرض ابلي زيتك، وأحي ميتك، وإلا خرب (أبرهة) الغرب بيت الله وبيتك"³⁶.

هذا الذي يعرف اليوم باستنزاف الثورة الباطنية من أمريكا وشريكاتها تنبه إليه الإبراهيمي منذ أمد بعيد.

وتأمل روعة هذا المثال وهو يحاجج الاستعمار بقوله: "يا حضرة الاستعمار! إنّنا إذا حاكمناك إلى الحق غلبناك، وإذا حاكمتنا إلى القوة غلبتنا، ولكننا قوم ندين بأنّ العاقبة للحق، لا القوة"، ويقول في سجع مقل، وإيجاز غير مغل: "إنّ هذه الأمة أنجبت الجندي الذي يحرس الحق لا الجندي الذي يخرس الحق.. وما هذا الراهب الذي جاءتنا به فرنسا إلاّ أنّه ليبارك على القاتل، ويدني الصيد من الخاتل، ويعاون المعمر على امتلاك الأرض، والحاكم على انتهاك العرض"³⁷.

هذا التناغم الموسيقي لا نجده إلاّ في الشعر وفي نثر الإبراهيمي، في هذا يقول محمد عباس: "إنّه رجل بلاغة يحفل فنّه النثري بالصناعة اللفظية والإيقاع الموسيقي الدائم العذب، ومن ميزة هذا الإيقاع أسلوب السجع، الذي ظلّ يلاحق فنّه الأدبي فانتقل به إلى حقل الشعر"³⁸.

وبهذا يتّضح لنا أنّ الحكم على كتابات الإبراهيمي بأنّه تكلف فيها الصنعة اللفظية، وحشاها بالمحسنات البديعية يعدّ سوء تقدير لأسلوب الرجل، فالإبراهيمي يراوح في أعماله كلّها بين فصاحة اللفظ وعمق المعنى.

5- المكانة الأدبية للإبراهيمي:

تجاوزت مكانة الإبراهيمي الحدود الجغرافية، ولم يذع صيته بالجزائر والمغرب العربي فحسب، بل كان في عصره- شيخ العروبة والإسلام بدون منازع.

وقد حاز الشيخ الإبراهيمي- بما امتلك من علم- تقدير كبار رجال الفكر والدين الذين عرفوه واحتكّوا به، فعدّوه العالم الموسوعي، واللّغوي المحقّق، والفيلسوف المدقّق، والفقيه المتضلع، والأديب الذي يملك أسلوباً يضارع أساليب فحول الكتّاب، فاستحقّ بذلك ثناء العلماء.

وقد كان لشخصيّته معجبون من بيئة الأدباء والعلماء، ووصل بهم الإعجاب إلى حدّ مبايعته بإمارة البيان، كما ببيع شوقي بإمارة الشعر. حيث كان اللقاء بالإبراهيمي كما قال محمّد الغزالي: "مصدر متعة أدبية وعلمية تجعل أدباء القاهرة وعلمائها يُهرعون إليه ويتزاحمون عليه"³⁹. لحضور ندواته ومحاضراته التي كانوا يجدون بها ضالّتهم العلمية والأدبية.

وقد تكلّلت هذه المكانة بأن كان عضواً بمجمع الخالدين بالقاهرة، كما حاز على العضوية بمجمعي اللّغة في كلّ من دمشق وبغداد، فكان مرجع العلم والأدب بهما. وهذه شهادة أخرى لعالم من علماء المجمع اللّغوي بالقاهرة، وهو إبراهيم مذكور يقول فيها: "كنّا نعول التعويل كلّ على مساهمته والإفادة من علمه وفضله"⁴⁰. أما بدمشق فقد ذاع صيته، وأشيد بفضله علمه، وقوّة لغته، واستقامة منهجه.

أما أدباء العراق فلم يقل إعجابهم بشخصية الإبراهيمي وموسوعية علمه، وفصاحة لسانه، وسعة اطلاعه، ووقوفه على قضايا واقعه عن غيرهم، إذ يقول فيه جمال الدين الأتاسي: "ونحن في العراق عزّز عواطفنا وألهم أحاسيسنا في محاضراته وأحاديثه، لم نشهد أديباً أو داعية بمقدراته، وطول نفسه، وإجادته لفنّ القول، وسعة اطلاعه على الأعياب الاستعمار، وكان صادق الحب لوطنه ودينه"⁴¹.

وأطلق علماء المشرق العربي عليه اسم الأستاذ الإمام، اعترافاً منهم بفضله وأدبه، وسعة علمه. والإبراهيمي من القلائل ممن حظي بمثل هذه المكانة، فقد كان له معجبون من الأدباء والعلماء بمصر، من أمثال الفيلسوف منصور فهمي، وإبراهيم مذكور، وكامل كيلاني، ونبت الشاطئ، والغزالي، وغيرهم. وقد بلغ بهم الإعجاب بأن بويج بإمارة البيان.

لم يفصل الإبراهيمي أبداً بين فنية الأدب واجتماعيته. فحاز على تقدير كبار رجال الفكر الذين عرفوه واحتكّوا به، وعدّوه العالم اللّغوي والموسوعي، والأديب المتضلع، والفقيه والفيلسوف الفذ، فأسلوبه في الكتابة يضارع أساليب فحول الأدباء والكتّاب، لذلك استحقّ ثناء العلماء، كالشيخ محمد بهجت البيطار.

هذه المكانة الجليلة للشيخ العربية في نفوس العلماء حملت كبار الشعراء على الإشادة بخصاله ومحامده، وعلى رأسهم محمد العيد آل خليفة.

هذه المكانة الأدبية للشيخ الإبراهيمي تعدّت الجزائر والمغرب العربي، وتجاوزت حدود الوطن العربي والإسلامي بمحيطه الواسع، ومكانته الأدبية تفرض نفسها في العصر الحديث.

أمّا رفيق دربه في العلم، وصنوه في رسالته الجليلة الشيخ عبد الحميد بن باديس فقد عدّه فخر علماء الجزائر، وهي شهادة عالم جليل متبصر بعقول الرجال، تؤكّدها وترسخها جملة الجهود العلمية التي قدّمها الشيخ الإبراهيمي.

احتلّ الإبراهيمي مكانة مرموقة بين أدباء عصره، وذاع صيته أكثر بعد هجرته إلى المشرق في عام 1952م، وتقلّبه في البلدان العربية والإسلامية، واتّصاله بقامات ومقامات في الفكر والأدب والدعوة، وكان لمحاضراته ومقالاته المستفيضة في مجال الأدب والإصلاح والمقاومة - والتي كان ينشرها في عديد المجلات والصحف - الأثر الكبير في تعرّف العلماء والأدباء عليه، حيث عاملوه بما يستحقّ من الإشادة والتقدير والتكريم والاعتراف بالفضل. فكانت لا تعقد في الخمسينيات في مصر تظاهرة علمية إلاّ وكان الإبراهيمي واسطة العقد وضيف الشرف.

ومن جميل ما قيل من عبارات الإعجاب والاعتراف بفنّ الإبراهيمي وأدبه شهادة "منصور فهمي" عقب استماعه إلى محاضرة ألقاها الشيخ في جمعية "الشبان المسلمين" عام 1953م مايلي: "إنّ هذا المنبر الذي يقف فيه الشيخ ساحة مقدّسة، ينبغي أن يدخلها الناس كما يدخلون الحرم، وأعلن هنا أنّي لم أر ولم أسمع في حياتي من هو أفصح وأبلغ من الشيخ البشير، لذا أتوجّه إليه قائلا: أنت ملك العربية لهذا العصر، ملكت نواصبيها ونواصينا، وإنّي أدعو العلماء والأدباء في الوطن العربي أن يلحقوا إليك بمقاليد اللّغة والبيان"⁴².

وقال "إبراهيم السامرائي" عن عيون البصائر: "لقد كانت هذه المقالات نموذجا أدبيا عاليا، ذلك أن صاحبها ملك من العربية ناصيتها، فذلت له أوابدها وعرف شواردها، فالعبارة سليمة تعتمد أدب العربية في اعصارها الزاهية، وإنّ القارئ يشعر وهو يقرأ هذا السّفر الغالي أنّ صاحبه قد ثقف ادب القرآن، وعرف بيانه ووعى أسرارها، فكان ذلك أمانة من أمارات أدبه وطابعا يميّز به فنّه الأصيل، وأنه عرف الحديث رواية ودراية، وأنّه أتمّ مادة الأدب القديم، فكان له كلّ ذلك زاد شهى أتمّ به أدبه، فكانت افتتاحيات البصائر"⁴³.

الخاتمة:

ليس الأدب مجرد وسيلة للتسلية والترفيه، بل يعدّ وسيلة من وسائل التعبير والتأثير، ومظهرا من مظاهر الثقافة والتّفكير، يثير في نفوس متلقيه حالات انفعالية وعاطفية، بفضل سياقاته وتعبيره الجمالية، وهو يبلّغ رسالاته التي تعكس معاناة وحاجات المجتمع المتنوعة، من سياسية إلى اجتماعية وإنسانية، وتبرز هذه الأهداف السّامية التي يرمي إليها الأدب في المقالات والخطب، والقصص والروايات التي يؤلفها الأديب والمفكر، ويعدّ البشير

الإبراهيمي أدبياً متألقاً وشخصية بارزة في الأدب الجزائري، اضطبغت لغته بطابع ديني قومي. أما مقالاته فتشكل جنساً أدبياً له تأثير بليغ في نفوس متلقيه.

وضمن هذا السياق حاولت هذه الدراسة أن تستعرض دعائم وتجليات فكر وأدب الإبراهيمي؛ مركزة على رسوخ ذلك الفكر المقاوم في كتاباته، وبروزه كمعتقد وثقافة ترفض كلّ أشكال الاستيطان والقهر والهيمنة، ومبرزة لتمييز فلسفته وفكره الإصلاحية الرامي إلى رفض كلّ أشكال التّغريب، والسّاعي إلى ترسيخ مقومات الأمة وثوابتها من خلال مخاطبة الذات الجزائرية، وتذكيرها بماضيها التّليد وربطها بخصوصيات عمقها الحضاري والثّقافي والتّراثي.

لم يبرز الإبراهيمي-فقط- في ميدان الإصلاح والمقاومة، إنّما كانت له إسهامات كثيرة في إثراء المكتبة الأدبية، فكتاباته لا يزال صداها يمدّ الخطباء والبلغاء والوعاظ بجميل النثر والأدب والبلاغة.

ولم تقتصر جهوده على تعليم النشء اللّغة العربية، والسّعي إلى استرجاع مكانتها الشّرعية في المجتمع الجزائري كلغة أم، بل خصّها بعدد البحوث والدراسات في مستويات لغوية عديدة.

ولا ريب أنّ جلّ ما تبقى من تراث الشيخ الإبراهيمي هي مقالاته، لذلك ارتأينا أن نتّخذ منها نموذجاً لهذه الدراسة. والمتأمل المدقّق في مقالات الإبراهيمي يستخلص جملة من خصائصها الجمالية وأبعادها الفنيّة والإبداعية التي تظهر جلياً في حسن انتقائه للألفاظ الموظّفة في نسيجه الأسلوبية، وتوحيه اقتباس ألفاظ القرآن وتوظيفها، حيث نجده ينزع في كتاباته إلى نسق القرآن وأسلوبه، ارتقاء بها إلى أعلى مراتب فن القول. كما اعتمد الإبراهيمي أسلوب التّحكم والسّخرية باعتباره نمطاً من الأنماط الخطابية، وظاهرة أسلوبية تتحقّق في كثير من الأساليب في علمي المعاني والبيان، لأنّه من وراء العنصر التّهمكي ندرك أبعاداً وأغراضاً تنطلق من وعي المخاطب في شكل ملفوظات قابلة للتّأويل من قبل المتلقي. كما يتلمّس الدّارس لنثره راحة عقله، ورصانة منطقته من خلال نزعة العقلية وممارساته المنطقية التي امتزجت بنقاء الشعور وصدق العاطفة. ومن أبرز سمات مقالات الإبراهيمي حسن الوصف وبراعة التّصوير التي تحقّق الإحساس بجمال الأسلوب، ومتعة التّدوق، وحلاوة التّلقي.

لقد حاز الشيخ الإبراهيمي، بما امتلك من علم، تقدير كبار رجال الفكر الذين عرفوه واحتكّوا به، فهو عندهم العالم الموسوعي، واللّغوي المحقّق، والفيلسوف المدقّق، والفقيه المتضلع، والأديب الذي له أسلوب يضارع أساليب فحول الكتّاب، لذلك استحقّ مدح العلماء وثنائهم.

8. هوامش البحث:

¹ انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، جمع وتقديم نجله أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي-تونس، ط1997، ج1، ص:06.

² انظر: المصدر نفسه، ج: 05، ص: 291 وما بعدها.

³ انظر: المصدر نفسه، ج: 04، ص: 05.

- 4 انظر: المصدر نفسه، ج:01، ص:18
- 5 انظر: الأدب والوعي القومي (آراء فيما يجب أن يكون)، سعدون حمادي، مركز دراسات-الوحدة العربية، مجلة دور الأدب في الوعي القومي، بيروت، ط1، سنة:1980م، ص:31.
- 6 النثر الفني عند البشير الإبراهيمي، عبد الملك بومنجل، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط1، سنة:2009، ص:35-36.
- 7 فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954)، ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر، ط:1983م، ص:89.
- 8 المقالة الوجدانية في نثر أدباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1926-1953م)، محمد دزغينة، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، ط 2005، ص:80.
- 9 انظر: فنون النثر الأدبي في الجزائر، عبد المالك مرتاض، ص:340-359.
- 10 انظر: قبسات من شخصية الإمام محمد البشير الإبراهيمي، توفيق جعمات، منشورات حياة الصحافة-الجلفة، ط1، سنة:2010م، ص:114.
- 11 انظر: عبد الرحمن شيبان في الذكرى المئوية لميلاد الشيخ الإبراهيمي، جريدة الشرق الأوسط، عدد3827، لندن 21-05-1989.
- 12 انظر: قبسات من شخصية الإمام محمد البشير الإبراهيمي، توفيق جعمات، ص:114.
- 13 آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص:129.
- 14 المصدر نفسه، ص:415.
- 15 المصدر نفسه، ص:05.
- 16 المصدر نفسه، ص:345.
- 17 دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت-لبنان، ط2003، ص:119.
- 18 انظر: بلاغة الاستهغام التقريرية في القرآن الكريم (دراسة أسلوبية)، محمد مختار الشيباني، مؤسسة كنوز الحكمة، سنة:2011، ص:195.
- 19 آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص:562.
- 20 المصدر نفسه، ص:392.
- 21 المصدر نفسه، ص:129.
- 22 مجلة الثقافة، العدد:87، عدد خاص بالإبراهيمي.
- 23 آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص:150.
- 24 المصدر نفسه، ص:130.
- 25 المصدر نفسه، ص:112.

- 26 المصدر نفسه، ص: 163.
- 27 المصدر نفسه، ص: 143.
- 28 المصدر نفسه، ج1، ص: 218-219.
- 29 المصدر نفسه، ص: 116.
- 30 على هامش المصدر نفسه، ج5، ص: 183.
- 31 المصدر نفسه، ج4، ص: 183.
- 32 المصدر نفسه، ص: 217-218.
- 33 المصدر نفسه، ج3، ص: 349.
- 34 المصدر نفسه، ص: 350.
- 35 المصدر نفسه، ص: 41-42.
- 36 المصدر نفسه، ص: 529.
- 37 المصدر نفسه، ص: 149.
- 38 البشير الإبراهيمي أديبا، محمد عباس، ديوان المطبوعات الجامعية-وهران، ص: 70.
- 39 المصدر نفسه، ج4، ص: 06.
- 40 الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته، الجزائر قصر الثقافة في 13 و14 ربيع الثاني 1426 هـ، الموافق 22 و23 مايو 2005م.
- 41 المرجع نفسه.
- 42 المرجع نفسه.
- 43 أصالة العربية في عيون البصائر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، إبراهيم السامرائي، دار الأمة-الجزائر، ط2، سنة: 2012م، ص: 217.